الإمامُ عليٌّ عليه السلام وتفسيرُ القرآنِ

د. نجم الفحام
النجف الاشرف - العراق

فحوى البحث

تناول البحث ياقوته من يواقيت امير المؤمنين علي عليه السلام المتمثلة بالتفسير.

وقد تناول فيه السيد الباحث أقوال العلماء الذين انقسموا على فريقين: فريق يرى عدم امكانية تفسير القرآن الكريم بأي حال من الاحوال، لأن اكثر اياته متشابهات ويجب حصر الأمر بالمعصوم لتلافي الوقوع في الفتنة والزيغ. وفريق يرى إمكان ذلك اذا امتلك المفسر اسباب العلم.

بعد ذلك تناول السيد الباحث دور الامام علي عليه السلام في بيان أن القرآن إنما كان للناس كل الناس وليس لطبقة خاصة من العلماء أو الفقهاء. ثم يسترسل في ايضاح ذلك مكملاً حديثه بدور الأئمة المعصومين في ذلك.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله، به الحمد وإليه الحمد، حمداً ليس لنا بلوغ غايته، اللهـمَّ لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى أهل بيته الطّيّبين الطاهرين الذين أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا.

دأب الامام عليه السلام على أنْ يربِّي الأمة على التوجه إلى القرآن الكريم واتخاذه مرجعاً للهداية ليعرفوا الرشد من خلاله وذلك بإطاعة أوامره، لانّ إطاعة الله رشدٌ إلى النجاة وانَّ الهدى هداه عزّ و جلّ وهذا الخطاب من الإمام عليه السلام موجه للناس كل الناس ليس لطبقة أوفئة دون أخرى ولا لمن عاصروا الإمام عليه السلام دون غيرهم. وهذا المعنى يرد قول القائلين بعدم فهم نصوص الكتاب العزيز من قبل الأمة. بل الإمام عليه السلام ينعى على الذين تركوا القرآن وراء ظهورهم وأصبحوا هم أئمة الكتاب وليس الكتاب أمامهم، وتمسَّكوا بالمنظر منه دون الجوهر فلم يقيموا محتوى القرآن وانما راحوا يذهّبون غلافه.

أمّا ما يذهب إليه من يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم إلاّ عن طريق أهل البيت عليهم السلام بوصفهم أهل القرآن الذين آتاهم الله عزَّ وجلَّ علمه فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم إلى سواهم؛ لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه ولا رأيه ولا مقاييسه. فهذا الكلام صحيح لا نقاش فيه ولكن فيما يتعلّق بالأحكام وتفصيلاتها ولعلّ كلَّ ما أوردوه من الأحاديث في هذا المعنى إنما هو فيما يتعلّق بمعرفة تفاصيل الأحكام الشرعية.

والذي يبدو للباحث أن أصحاب هذا الاتجاه إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه لكثرة ما ورد من النهي عن التفسير بالرأي وما شاب عملية التفسير من الوضع والدس و الإسرائيليات والكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله والتحذير من ذلك منذ بواكير الدعوة الإسلامية، فقد جاء شيءٌ من هذا التحذير على لسان صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله نفسه. فقد كُذب عليه صلى الله عليه وآله على عهده حتى قام خطيباً فقال: ((يا أيها الناس قد كثُرت عليَّ

الكذَّابةُ، فمن كذب عليَّ متعمداً فلَيتبوَّأْ مقعده من النار)).

ولاشكّ أنَّ كثيراً من الناس لا يستطيع أنْ يستوعب معاني كثيرٍ من الآيات، ولعل بعض هؤلاء، ممن كانوا معاصرين لنزول الوحي. فكيف بمن جاء بعدهم مع تعدد دلالات النص القرآني و ما حفل به من المتشابه، والمشكل، والمطلق، والمجمل، والعام...

وإذا كان النص القرآني خطاباً للناس كافة في كل زمان ومكان على مرِّ العصور وكرِّ الدهور وتعدّد الأجيال حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فستكون الحاجة للتفسير أكثر كلما ابتعدنا عن عصر نزول الوحي وملابساته والظروف المحيطة بنزول الآيات وقرائن الأحوال وعدم الإحاطة بالمعاني اللغوية المتداولة وقت نزول الوحي.

المبحث الأوّل:

الحاجة إلى التفسير بين مدرسة أهل البيت ومدرسة الصحابة.

هناك اتجاه في الأمة يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم، لان النص القرآني أكثر آياته هو المتشابهات، وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة عند التعاطي مع النص القرآني تفسيراً وتحليلاً.

فان فهم القرآن أمر يستحيل الوصول إليه من قبل الأمة إلاّ من خلال النبي والأئمة -صلوات الله عليهم -لأنهم الراسخون في العلم والذين يعلمون تأويل القرآن الكريم مستندين في ذلك إلى بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث المروية عن النبي وأهل بيته -صلوات الله عليهم أجمعين.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة آل عمران: ٧].

والآية الكريمة وإن لم تحدد هذه المتشابهات التي يستند إليها أصحاب هذا الرأي إلا أنهم قد يجدونه في كثير من الروايات التي تذهب إلى أن المتشابهات هي الحروف المقطعة النازلة في أوائل

السور مثل: كهيعص، و حم، و آلم.. . أو العكس أن هذه الحروف هي المحكمات، والمتشابهات غيرها وبالتالي فان المتشابه في القرآن يستغرق معظم آياته، والمتشابه كذلك هو المجمل، والآيات المنسوخة التي نؤمن بها ولا نعمل بها وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وبعض الصحابة، ومنه كذلك ما يحتاج في معرفته إلى تأمل وتدبّر، والمتشابه عندهم مالا سبيل الى العلم به كوقت الساعة ونحوه، والمتشابهات ماعدا آيات الأحكام؛ ونحن نعلم أنّ آيات الأحكام لا تتجاوز الخمسمائة آية[1] ان لم تكن أقل -ومن المتشابه لديهم ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة، ومنه ما تشابهت ألفاظهُ من قصص الأنبياء مع أممهم بالتكرار في سور متعددة، ومنه آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه كالعليم والقدير والحكيم والخبير، وصفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾[سورة النساء: ١٧١]، والمتشابه مالا سبيل للعقل إليه، ومنه ما اختلف في تأويله[2]، ومنه ما أريد به خلاف ظاهره...[3].

ولكي لا نقع في الزيغ -على وفق هذه الرؤية -علينا الوقوف عند ما قال به الراسخون في العلم لأنهم هم الذين يعلمون تأويله، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، أنه قال: ((فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين، قد علمه الله عزّ وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤهُ من بعده يعلمونه كلّهُ... والقرآن خاص وعام، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه))[4].

مستندهم في ذلك أنّ أهل البيت عليهم السلام عدل الكتاب[5]. وعدل الشيء لابد ان

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٣٥.

(٢) المراد به المعنى المرادف للتفسير.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٦٨ وما بعدها.

(٤) الكافي، ثقة الاسلام: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، ط ١، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م -١٤٢٨هـ، ج١ ص١٢٧.

(٥) وهذا ماجاء في حديث الثقلين من معنى عدم الافتراق والحجية: ((فالحجية لهما

يكون مساوياً له وهذا الأمر باق لهم في كل عصر ومصر وانهما لن يفترقا حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. بل إن عندهم عليهم السلام علم التوراة والإنجيل والزبور، وبيان ما في الألواح. وإنهم هم الذين يعلمون ظاهر القرآن وباطنه وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم. وان للقرآن قيِّمٌ لابدّ من الرجوع اليه. وهم خزّان وحي الله و تراجمة وحيه. وقد آتاهم الله علم التفسير من أوله الى آخره.

عن منصور بن حازم قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((... ان من عرف أن له ربًّا، فينبغي له ان يعرف انَّ لذلك الربِّ رضاً وسخطاً، وانه لايعرف رضاه وسخطه الاّ بوحيٍ أو رسولٍ، فمن لم يأتهِ الوحي فقد ينبغي له ان يطلب الرسل، فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وان لهم الطاعة المفترضة. وقُلتُ للناس: تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان هو الحجة من الله على خلقه؟. قالوا: بلى. قلتُ: فحين مضى رسول الله صلى الله عليه وآله من كان الحجة على خلقه؟. فقالوا: القرآن. فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ و القدريُّ والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أنّ القرآن لا يكون حجة إلاّ بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقاً، فقلتُ لهم: من قيم القرآن؟. قالوا: ابن مسعود قد كان يعلم، وعمر يعلم وحذيفة يعلمُ، قلتُ: كلّهُ؟ قالوا: لا، فلم أجد أحداً يقالُ: إنه يعرف ذلك كلّهُ إلاّ علياً عليه السلام. وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: أنا أدري، فأشهد أن علياً عليه السلام كان قيم القرآن، وكانت طاعته مفترضةً وكان الحجة على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وان ما قال في القرآن فهو حقٌّ. فقال: رحمك الله))[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا))[٧].

معاً فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس الى أغراضه ومقاصده)). الميزان: ٣/ ٧٦.

(٦) الكافي: ١/ ٩٧ -٩٨.

(٧) المصدر نفسه: ١/ ١١٢.

-قال الامام الباقر عليه السلام: ((نحن خُزَّانُ علم الله ونحن تراجمة وحي الله، ونحنُ الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض))[٨].

وكذلك يستدلون بما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((سلوني عمّا شئتم فلا تسألوني عن شيءٍ الاّ أنبأتكم به))[٩].

وقد سأل رجل من أهل الكوفة أبا جعفر عليه السلام عن قول أمير المؤمنين هذا فأجابه الإمام قائلاً: ((إنهُ ليس أحدٌ عنده علمُ شيءٍ إلاّ خرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فو الله ليس الأمر إلاّ من هاهنا، وأشار بيده الى بيته))[١٠].

وهذا الاتجاه يرى انَّ للقرآن أهلاً آتاهم الله علمه فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم الى سواهم. لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه و لا رأيه ولا مقاييسه.

(٨) المصدر نفسه: ١/ ١١٣.
(٩) المصدر نفسه: ١/ ٢٥٠ -٢٥١.
(١٠) المصدر نفسه: ١/ ٢٥١.

المبحث الثاني:

عليّ عليه السلام يربّي الأمّة على التوجه إلى القرآن.

لاشكّ أنَّ كثيراً من الناس لا يستطيع أنْ يستوعب معاني كثيرٍ من الآيات، ولعل بعض هؤلاء، ممن كانوا معاصرين لنزول الوحي[١١]. فكيف بمن جاء بعدهم مع تعدد دلالات النص القرآني و ما حفل به من المتشابه، والمشكل، والمطلق، والمجمل، والعام...

وإذا كان النص القرآني خطاباً للناس كافة[١٢] في كل زمان ومكان على مرِّ العصور وكرِّ الدهور وتعدّد الأجيال

(١١) فقد قال ابو بكر: أي ارض تقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن مالا أعلم. وفي رواية أخرى: إذا قلت في القرآن برأيي: أو بما لا أعلم. وذلك عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾. و قال عمر: قال الله: ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ كل هذا قد علمناه، فما الأب؟. ثمّ ضرب بيده، ثمّ قال: لعمرك إنّ هذا لهو التكلّف، واتبعوا مايتبيّن: لكم في هذا الكتاب... وما يتبيّن فعليكم به، ومالا فدعوه. جامع البيان: ج١ ص٥٢، ج١٥ ص٦٧.

(١٢) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة سبأ: ٢٨].

حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فستكون الحاجة للتفسير أكثر كلما ابتعدنا عن عصر نزول الوحي وملابساته والظروف المحيطة بنزول الآيات وقرائن الأحوال وعدم الإحاطة بالمعاني اللغوية المتداولة وقت نزول الوحي.

فنحن اليوم نحتاج إلى ما يحتاج إليه من عاصر نزول الوحي وزيادة، وهذه الزيادة يحتمها علينا النص القرآني الذي يتميز بالجدة في كل زمان فقد جاء في الحديث الشريف: ((إنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل القرآن لزمانٍ دون زمان، ولناسٍ دون ناسٍ، فهو في كل زمانٍ جديد))[١٣].

فالقرآن الكريم جاء ليستفيد منه الناس كل الناس، لأنه كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٣٨]. وهو تبيان لكل شيء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩]. وهو الكتاب المبين الذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة المائدة: ١٥]، ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[سورة يوسف: ١]، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[سورة النحل: ١٠٣].

ومؤدّى هذه الآيات الكريمات أنّ فهم القرآن الكريم ليس بمقصورٍ على جماعةٍ أو صنفٍ من الناس، على المفسرين من العلماء والفقهاء وحسب، وإنما جاء القرآن الكريم ليستفيد منه الجميع كما ألمح الى ذلك الحديث الشريف الآنف الذكر، لانّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ أي باللغة العربية، والذين نزل بين ظهرانيهم هم عربٌ أقحاح، وكانوا أرباب الفصاحة وحذّاق البلاغة، فهم والحال هذه يمكنهم

(١٣) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ج٢ ص٢٨٠.

التعاطي مع القرآن والرجوع إليه مباشرةً.

وقد كان لهذه السمة أثرها الواضح في فهم القرآن الكريم في كثير من آياته البيّنات والمحكمات لمن كان على دراية باللغة العربية التي نزل بها النص الكريم- النص السماويُّ الأرقى -وما يحويه من دلالة وبلاغة، والتعاطي معه فهماً وتدبّراً.

ولكن مع دقَّة الفهم هذه هناك الكثير من الدلالات والمعاني في النص القرآني لا يمكن استيعابها من قبل الناس من دون الرجوع إلى أهل الصناعة أو الاختصاص، بل هناك من المعاني ما لا يدركها أهل الاختصاص ولا يعرفها حتى العلماء، ويمكن عدّها وجهاً خامساً لما ذكره ابن عباس من انّ التفسير: ((على أربعة أوجه، وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله))[١٤].

وهذا الوجه: هو ما لا يعلمه الاّ الراسخون في العلم وهم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين.

- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((ما جاء به عليٌّ عليه السلام آخذُ به و ما نهى عنه انتهي عنْهُ، جرى له من الفضل مثلُ ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله، ولمحمدٍ صلى الله عليه وآله الفضل على جميع من خلق الله عزَّ وجلَّ، المتَعَقِّبُ عليه في شيءٍ من أحكامه كالمتَعَقِّب على الله وعلى رسوله. والرادّ عليه في صغيرةٍ أو كبيرة على حدِّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة عليهم السلام واحد بعد واحد..))[١٥].

ولكن هذا المعنى أو هذا الوجه لا يعني بالضرورة عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم كون أكثر آياته هي المتشابهات وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة.

فهذا القول لا يستقيم لأصحاب هذا الرأي وهو لا يستند إلى دليل، بل الآية المباركة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(١٤) جامع البيان: ١/ ٥٠.

(١٥) الكافي: ١/ ١١٦.

[سورة آل عمران: ٧] دليل يثبت خلاف ما ذهبوا إليه تماماً إذ الآية تدعو إلى تفسير القرآن الكريم وتعطي المفتاح والمنهجية الصحيحة في تناول المتشابه وذلك بالرجوع إلى المحكم، ولم تتطرق الآية المباركة إلى هذه المصاديق التي ذكروها للمتشابهات من بعيد أو قريب. وكذلك أقوال المعصومين عليهم السلام تدعو إلى ذلك.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصفه كتاب الله تعالى: ((... ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأُ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقدهُ وبحراً لا يُدْرِكُ قعرهُ، ومنهاجاً لا يُضِلُّ نهجهُ، وشعاعاً لا يُظلِمُ ضوْءُهُ، وفُرْقاناً لا يخمدُ بُرْهانُهُ، وتبياناً لا تهْدمُ أركانهُ، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصارُهُ، وحقّاً لا تخذل أعوانُهُ، فهو معدن الإيمان وبُحْبُوحَتُهُ، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدلِ وغدرانه، وأثافيُّ الإسلام وبنيانه، وأوديةُ الحق وغيطانهُ، وبحرٌ لا ينزفه المستنزفون وعيونٌ لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلُّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكامٌ لا يجوزُ عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطُرقِ الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونوراً ليس معه ظلمةٌ، وحبلاً وثيقاً عروتهُ، ومعقلاً منيعاً ذروتُهُ، وعزّاً لمن تولاهُ، وسلماً لمن دخله، وهدىً لمن ائتمَّ به، وعذراً لمن انتحلهُ، وبرهاناً لمن تكلَّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجَّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيَّةً لمن أعملهُ، وآيةً لمن توسَّمَ، وجُنَّةً لمن استَلأَمَ، وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى))[١٦].

فكلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مُوجَّهٌ للناس كل الناس وليس لطبقة خاصّة من العلماء أو الفقهاء، وعلى الأمة انْ تتولاه لتنال عزّها به وسلامتها وهداها ونجاتها من ضلالتها وضياعها. ولوكان

(١٦) شرح نهج البلاغة، الجامع لخطب وحكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، تأليف عزّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: الاستاذ: محمد أبي الفضل ابراهيم، ط ١، الدار اللبنانيَّة للنشر، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، الخطبة: ١٩٨.

تفسير القرآن منحصراً بأهل بيت النبوة عليهم السلام وليس لأحدٍ غيرهم أنْ يعرفه لما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه ريًّا لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاجَّ لطُرق الصلحاء. وانما خاطب الناس بأنه نور ليس معه ظلمةٌ وهدىً لهم أذا أتمُّوا به، وكيف يمكن لهم ذلك اذا لم يعرفوا القرآن وما فيه من أمرٍ ونهيٍ. وكيف يكون لهم مطيةً وهم لا يعلمون ما فيه ولا يعملون به. وكيف يكون الناس حفظةً للقرآن فيما استحفظهم الله من كتابه واستودعهم من حقوقه، وأنه تبيان لكل شيءٍ وهم لا يعلمون ولا يعرفون من خلاله خير أعمالهم أو شرّها، وكيف يمهّد الناس لأنفسهم وأقدامهم من زاد التقوى إذا لم يدركوا ما أحبه الله تعالى من الطاعة وما كرهه من المعصية.

يقول الإمام عليه السلام: ((... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم مِنْ كتابه، واستودعكم من حقوقه، فإنَّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى، ولم يدعكم في جهالةٍ ولا عمى، قد سمّى آثاركم، وعَلمَ أعمالكم، وكتب آجالكم، وانزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيءٍ، وعمَّرَ فيكم نبيَّهُ أزماناً، حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضيَ لنفسه، وانهى إليكم على لسانه محابَّهُ من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، وألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يديْ عذابٍ شديد))[17].

بل إن الإمام عليه السلام يدعو الرجل الذي أتاه يسأله قائلاً: صِفْ لنا ربنا مثل ما نراه عياناً لنزداد له حُبًّا، وبه معرفةً، يدعوه الى النظر والتأمل بالقرآن ليستضيء بنور كتابه عزّ وجلَّ، إذ يقول: ((... فانظر أيها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمَّ به، واستضئ بنور هدايته...))[18].

فالإمام عليه السلام يدعو إلى التدبر في القرآن الكريم وتعلمه لأنّه أحسن القصص وانفعها، يقول في خطبةٍ له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام: ((... وتعلموا القرآن فانه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع

(١٧) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٨٦.
(١٨) المصدر نفسه، الخطبة: ٩٠.

القصص..))[١٩].

والإمام عليه السلام يريد أنْ يربِّي الأمة على الاتجاه إلى القرآن الكريم واتخاذه مرجعاً للهداية ليعرفوا الرشد من خلاله وذلك بإطاعة أوامره، لانّ إطاعة الله رشدٌ إلى النجاة وانَّ الهدى هداه عزّ و جلّ وهذا الخطاب من الإمام عليه السلام موجه للناس كل الناس ليس لطبقة أوفئة دون أخرى ولا لمن عاصروا الإمام عليه السلام دون غيرهم. وهذا المعنى يرد قول القائلين بعدم فهم نصوص الكتاب العزيز من قبل الأمة. بل الإمام عليه السلام ينعى على الذين تركوا القرآن وراء ظهورهم وأصبحوا هم أئمة الكتاب وليس الكتاب أمامهم، وتمسَّكوا بالمنظر منه دون الجوهر فلم يقيموا محتوى القرآن وانما راحوا يذهّبون غلافه.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((.. فتجلّى لهم سبحانه في كتابه.. وليس.. سلعةٌ أبور من الكتاب إذا تلي حقَّ تلاوته، ولا أنفق منهُ إذا حُرِّف عن مواضعه.. فاجتمع القومُ على الفرقة، وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، ولا يعرفون إلاّ خَطَّهُ وزبْرَهُ..))[٢٠].

ثمَّ يُبين الإمام علي عليه السلام انّ فهم الكتاب له مراتب ودرجات قد يتعذّر على عامة الأمة إدراكها وإنْ كان ظاهر القرآن حجة لانّ باطنه لا يعرفه كل أحدٍ لانّ: ((المتصدِّين لفهم معاني القرآن لا يصلون الى منتهاه، لانه غير متناهي المعاني، بل وفيها دلالة على انّ معاني القرآن لا تنقص أصلاً، كما لا تنضب العيون الجارية بالسقاية منها))[٢١].

وقد أعطى الإمام عليه السلام النهج والمنهاج في التعامل مع الكتاب العزيز إذ يقول: ((... واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركهُ، و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضهُ، ولن تمسّكوا به حتى تعرفوا الذي نبذهُ. فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هُمُ الذين يخبركُم حُكْمُهُم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرُهُم عن باطنهم، لا

(١٩) المصدر نفسه، الخطبة: ١٠٩.

(٢٠) المصدر نفسه، الخطبة: ١٤٧.

(٢١) البيان في تفسير القرآن: ٢٤.

يخالفون الدين و لا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهدٌ صادق، وصامتٌ ناطقٌ))[٢٢].

وهذا منتهى الإيضاح والبيان في هذا الباب الذي أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك: ((لأنّ الحق الذي كلّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن...))[٢٣].

فالمراتب والدرجات التي يمكن تدبّرها والنظر فيها لابدّ وانْ يكون المكلّف غير معذورٍ في تركها أو ترك البحث فيها والتحليل لمضامينها، لانَّ القرآن الكريم ذمَّ الذين لا يتدبّرون القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤].

وعليه فالآيات القرآنية: ((تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمنٍ ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه، إلى تعقّل القرآن وتأمله والتدبّر فيه، وخاصّة قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، تدل دلالة واضحة على أنّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث...))[٢٤].

وعليه فلكل إنسان نصيبه في استمطار معاني النص الكريم كلٌّ بحسبِهِ لانّ الناس يتفاوتون فيما بينهم في الفهم والإدراك والقابلية على التعاطي مع النص السماوي الأرقى قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [سورة الرعد: ١٧]. وهذا الاختلاف والتفاوت أمرٌ طبيعيٌّ في غريزة الإنسان، يقول الغزالي: ((... وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم الاّ بعد تعب طويلٍ من المعلم، والى ذكيٍّ يفهم بأدنى رمزٍ وإشارة، والى كاملٍ تنبعث من نفسه حقائق الأمور، بدون التعليم كما قال تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[سورة النور: ٣٥]... وانقسام الناس إلى من يتنبّه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الاّ بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعه التعليم أيضاً، ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجّر

(٢٢) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٧.
(٢٣) إحياء علوم الدين، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج١: ص٣٣٥.
(٢٤) الميزان: ٥/ ٢٥٥.

بنفسه عيوناً والى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل))[٢٥].

أمّا المراتب والدرجات والمعارف القرآنية التي لا يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث فطريقها ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ردّها إلى سنة النبي وأئمة الهدى -صلوات الله عليهم- تأسّياً بالراسخين في العلم الذين أغناهم ربّهم عن تقحّم ما خفي عليهم، لأنه: ((ما قال النبي صلى الله عليه وآله من شيء فهو في القرآن، وفيه أصله، قرب أو بَعُدَ، فهمه من فهمه، وعمِه عنه من عَمِه، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]...))[٢٦].

يقول عليه السلام: ((... وما كلّفك الشيطان علمه، مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله، وأئمة الهدى أثرُهُ، فكِل علمه إلى الله سبحانه، فإنّ ذلك منتهى حق الله عليك...))[٢٧].

وذلك لانّ أئمة الهدى هم عدل القرآن الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وآله: ((إني تارك فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما)). وفي رواية: ((إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبلٌ ممدود مابين السماء والأرض أو مابين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض))[٢٨].

يقول الغزالي: ((... ومنْ ظنَّ أنَّ عقل النبي صلى الله عليه وآله مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخسّ في نفسه من آحاد السوادية))[٢٩].

وعلم علي عليه السلام علم رسول الله صلى الله عليه وآله فقد روى الحافظ أبو نعيم احمد بن عبد الله

(٢٥) إحياء علوم الدين: ١/ ١٦٦.
(٢٦) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٢٩.
(٢٧) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.
(٢٨) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع ونشر: دار الفكر العربي، ج٥ ص١٨٢، جامع الأصول: ١ / ١٨٧.
(٢٩) إحياء علوم الدين: ١/ ١٦٦.

صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((يا علي إنَّ الله أمرني أن أُدنيك وأعلمك لتعي، وأُنزلت هذه الآية وتعيها أذنٌ واعية فأنت أذنٌ واعية لعلمي))[٣٠].

ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((... ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطِق ولكن أُخبركم عنه، ألا إنَّ فيه عِلَمَ ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائِكم، ونَظمَ ما بينكم))[٣١]. ولكن هذا القول من الإمام عليه السلام لا يعني أنَّ الأمة لا تستطيع تفسير القرآن في كل مراتبه ودرجاته وإنما المراد أنَّ فهم محتوى القرآن كلّه لا يتيسّر إلاّ لمن خوطب به وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله ومن جعلهم أحد الخليفتين بعده.

بل إنّ الإمام عليه السلام لا يرى موعظة للأمة مثل كتابها العزيز الذي آثرها الله عزّ و جلّ به دون الأمم السالفة إذ يقول: ((... فإنَّ الله سبحانه لم يعِظ أحداً بمثل القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاءٌ غيرُهُ، مع أنه قد ذهب المتذكّرون، وبقي الناسون أو المتناسون...))[٣٢].

وكيف يأخذ الإنسان العظة والعبرة من القرآن الكريم إذا كان لا يفهم خطابات هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى هدىً للناس، والإمام إنما يريد شدَّ الأمة إلى القرآن لأنها لا غنى لها عن القرآن إذ هو الناصح الأمين والشافي لها من أدوائها والدليل إلى ربها.

يقول عليه السلام في خطبةٍ له يحذّر فيها من متابعة الهوى: ((... واعلموا انَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشُّ، والهادي الذي لا يضِلُّ، والمحدِّثُ الذي لا يكذبُ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هدىً، أو نقصانٍ من عمىً. واعلموا أنه ليس على أحدٍ بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائِكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغيُّ والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبِّه، ولا تسألوا به خلْقه، إنه ما توجّه

(٣٠) حلية الأولياء: ١/ ٦٧.

(٣١) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٩.

(٣٢) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٧.

العبادُ الى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافعٌ مشفّع، وقائلٌ مصدقٌ وأنه منْ شفع له القرآن يوم القيامة شفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صُدِّق عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: الا إنَّ كلَّ حارثٍ مبتلىً في حرثِهِ وعاقبة عمله، غير حَرَثَةِ القرآن. فكونوا من حَرَثَتِهِ وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشُّوا فيه أهواءكم))[٣٣].

وأنّ القول بان رسول اللهﷺ أفضل الراسخين وان الله تعالى وتبارك قد علم نبيّه التنزيل والتأويل وأنهﷺ وأوصياؤه من بعده يعلمون هذا التنزيل والتأويل و ما في القرآن الكريم من خاصّه وعامّه، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه و منسوخه...

فهذا كلّه صحيح ولكن المراد من هذا القول هو علم المعصوم ومعرفته بالتفسير أو غيره فيما يتعلّق بالقرآن الكريم أي المراد علم الكتاب كلّه إذ ليس عند أحدٍ سواهم عليهم السلامعلم الكتاب كلّه قطعاً وواقعاً.

أمّا قولهمعليهم السلام وليس شيءٌ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم وذلك لانَّ القرآن فيه ظاهرٌ يمكن أنْ يناله عامّة الناس ممن لهم أدنى معرفة في اللغة التي نزل فيها القرآن الكريم والذي خاطبهم بها على وفق فن القول لديهم، وفيه باطن عميقٌ أو بطن عميق إلى سبعة أبطن، ففي الحديث: ((إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً الى سبعة أبطن))[٣٤].

فهذه الأبطن العميقة وهذه المعارف العالية بكل ما تحتويه من مراتب ودلالات لا يمكن أنْ يصلها كل من هبَّ ودبَّ، فالقرآن بكل ما فيه ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٨ -٧٩]. وهذا هو معنى قول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام: ((إنّ الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا))[٣٥].

فغيرهمعليهم السلام لا يمكن أنْ يعرف كل

(٣٣) المصدر نفسه، الخطبة: ١٧٧.

(٣٤) ينظر: تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ط١، دار الجوادين، دمشق، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩ م، ج١ ص٢٠.

(٣٥) الكافي: ١/ ١١٢.

تنزيل القرآن وتأويله بجميع مراتبه؛ لانّ هذا العلم مخصوص برسول صلى الله عليه وآله وبالعترة الطاهرة عليهم السلام لانَّ علمهم من علم رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أطلعه ربه عزَّ و جلّ على ما يشاء من العلم الذي يقضيه ويمضيه مما غاب عن غيرهم.

وهم عليهم السلام يؤكدون هذا المعنى -كون علمهم علم النبي صلى الله عليه وآله لتنبيه الأمة ولقطع الطريق على منْ يذهب إلى أكثر من هذا المعنى في حقهم، فقد بيّنوا عليهم السلام لأصحابهم ما هم وما حقيقتهم.

أما استدلالهم بأنّ الله عزَّ و جلَّ لا يجعل حجَّة في أرضه يسأل عن شيءٍ فيقول لا أدري. فهذا لا يعني أنْ التفسير موقوف عليهم وليس لأحد من هذه الأمة انْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ و جلَّ حتى في ظواهره وإنما المقصود كما قلنا آنفاً هو معرفتهم بجميع ما يحويه القرآن من الظاهر والباطن وهو ما يسمّى في أقوالهم عليهم السلام بجميع القرآن. قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: ((ما يستطيع أحد أنْ يدعي أنَّ عنده القرآن كلَّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء))[٣٦].

فالباطن لا يمكن معرفته للعامة الاّ من خلال الأوصياء من آل محمد صلى الله عليه وآله لأنهم أهل القرآن وأهل الذكر فلا يرغب عنهم ولاعن مسألتهم في معرفة ذلك. لانّ: ((في كل سورة منه بحار من المعارف وتتجلى من كل آية منه أنوار من الحقائق، وكيف لا يكون كذلك، وقائله لانهاية لعلمه وكماله، ولا حدَّ لعظمته وجلاله..))[٣٧].

ولكن هذا لا يعني أنَّ عامة الناس الذين خاطبهم القرآن الكريم على وفق فن القول لديهم وما اعتادوهُ في حواراتهم وأساليب كلامهم أنهم لا يستطيعون فهم شيءٍ منه: ((إنه لا يجوز أنْ يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيه تناقض وتضاد. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف: ٣] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٥] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: ٤] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل: ٨٩] وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام:

(٣٦) الكافي: ١ ١٣٦.

(٣٧) مواهب الرحمن: ١/ ١٣٦.

٣٨] فكيف يجوز أنْ يصفه بأنه عربيٌّ مبين، وأنه بلسان قومه، وأنه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟. وهل ذلك الاّ وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به الاّ بعد تفسيره وبيانه؟. وذلك منزّه عن القرآن وقد مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾[سورة النساء: ٨٣] وقال في قومٍ يذمّهم لم يتدبّروا القرآن ولم يتفكروا في معانيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[سورة محمد: ٢٤] وقال النبيﷺ: (إني مخلفٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي) فبيّن أنّ الكتاب حجة، كما العترة حجة. وكيف يكون حجة مالا يفهم به شيء؟. روي عنهعليه السلام أنه قال: (إذا جاءكم عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط). وروي مثل ذلك عن أئمتناعليهم السلام، وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يفهم به شيء؟.))[٣٨].

وهذا لا يعني أنَّ التفسير موقوف على العترة وليس لأحد من هذه الأمّة أنْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ و جلَّ حتى فيما يتعلّق بظواهره من مفاهيم ودلالات.

وعليه فـ ((إنَّ الآيات التي تدعو الناس عامّة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقّل القرآن و تأمّله والتدبّر فيه وخاصّة قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[سورة النساء: ٨٢]، تدل دلالة واضحة على أنَّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبّر و البحث))[٣٩].

أمّا ما يذهب إليه أهل هذا الاتجاه من عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم إلاّ عن طريق أهل البيتعليهم السلام بعدّهم أهل القرآن الذين آتاهم الله عزَّ وجلَّ علمه فلا يرغب عنهم ولاعن مسألتهم إلى سواهم؛ لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه و لا رأيه ولا مقاييسه. فهذا الكلام صحيح لا نقاش فيه ولكن فيما

(٣٨) التبيان: ١/ ٤ -٥.

(٣٩) الميزان: ٣/ ٧٤.

يتعلّق بالإحكام وتفصيلاتها ولعلّ كلَّ ما أوردوه من الأحاديث في هذا المعنى إنما هو فيما يتعلّق بمعرفة تفاصيل الأحكام الشرعية، ومن هذا الحديث الذي نقلوه عن الإمام الصادق عليه السلام: ((إنَّما الوقوف علينا في الحلال والحرام...))[٤٠] وهكذا باقي الأحاديث و الأقوال والروايات إنْ لم تكن كلها.

وهذا هو معنى كلامهم سلام الله تعالى عليهم في أقوالهم: تبيان كل شيء، ما تحتاج إليه الأمة، أعلم منكم. علم الكتاب كلّه، علم النبيين، علم الوصيين، علم العلماء، ممن مضوا، حكم الله الذي لا اختلاف فيه، ما يحتاج إليه ولد آدم، وليس عند أحدٍ شيء إلاّ ما خرج من أهل البيت، تفويض الله تعالى لنبيه والأئمة وإنْ لم يكونوا أنبياء...

فمعنى كل شيء إنما هو الحلال والحرام والحدود والأحكام ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وآله- لا تعلموهم. فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((قال رسول الله -صلى الله عليه وآله-...

(٤٠) الكافي: ١/ ١٦٠.

فلا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم...))[٤١].

وليس هذا بكثيرٍ عليهم لانَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ورثهم عِلَمَ الكتاب كلّه ظاهره وباطنه. فقد روي عن الإمام أبي جعفرٍ الباقر في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[سورة الرعد: ٤٣]، أنَّهُ قال: ((إيانا عنى، وعليٌّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله))[٤٢].

ومثله عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((.. . عندنا والله عِلمُ الكتاب كلِّه))[٤٣].

وهم وإنْ لم يكونوا أنبياء الا أنهم هم العلماء حقا لأنهم إنما أخذوا علمهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وعملوا به ولم يضيعوه وكانوا يشيرون إلى هذا المعنى كي تفهم الأمّة دورهم ومقام معرفتهم للأحكام الشرعية لتهتدي إلى الله تعالى بإذنه وتنال سبل الحق لديه، بما أكرمهم به من كرامة الذكر وما آتاهم وخصّهم به من العلم بالكتاب كلّه.

(٤١) المصدر نفسه: ١/ ١٢٤.
(٤٢) الكافي: ١/ ١٣٦.
(٤٣) المصدر نفسه: ١/ ١٣٦.

وقد بلغ عزل العترة عن الأمّة الذروة في حياة الإمامين الباقرين عليهما السلام واستشرت مسالة الرأي في التفسير والقياس وغيره في فقه الأحكام وكان من جرّاء ابتعاد الأمة عن أئمتها أنْ تشعّبت بهم الأمور وتعددت السُبُل وتركت الأخذ عمن أخذوا علمهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله بل وصل الأمر ببعض من جهلوا أنْ رأوا أنفسهم على علم وانّ العترة الطاهرة عليهم السلام على جهلٍ وضلالٍ.

ولذلك راح أئمة أهل البيت يتصدون لهذا التيار الذي استشرى في الأمة بكل ما أُتوا من علمٍ وطاقة لا يألون في ذلك جهداً و لا علماً ليخرجوا الأمة من ضلال التقليد والقياس ومزالق الرأي.

ففهم القرآن الكريم كل القرآن لاسيما معرفة الأحكام الشرعية لا يمكن أن تتمّ من دون الرجوع إلى العترة الطاهرة تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين: (إني تارك فيكم الثقلين..) لانّ الثقل الأصغر وهم العترة قد زوّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله بكل ما يجعلهم اهلاً ومرجعاً في مقام فهم القرآن والوصول الى ذلك كي لا تضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وآله أبداً.

ومن هذه الطرق التي ليست بأيدي غيرهم هو ما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وآله من علم أملاه على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وخطّهُ بمينه مما يحتاج إليه الناس من مسائل الحلال والحرام، وما أخذوه عنه من علم النبيين والوصيين، وعلم ما هو كائن إلى أنْ تقوم الساعة.

ومن هنا يتبيّن لنا أن كل ما ذكروه من أحاديث واستشهدوا به من اقوال في عدم الحاجة الى تفسير القرآن أو عدم امكانية تفسيره، والاقتصار على ما ورد عن المعصوم عليه السلام إنما هو من باب عدم جواز استنباط الاحكام النظرية من ظواهر القرآن، الاّ بعد معرفة تفسيرها من الأئمة عليهم السلام، ووجوب التوقّف والاحتياط في القضاء والفتوى، والعمل في كل مسألة نظرية لم يعلم حكمها بنصٍ منهم عليهم السلام، لانهم هم الذين يعرفون الحلال والحرام، وهم الحجّة لله عزّ و جلّ على خلقه.

وكذلك هي الحال عند من يرى عدم إمكانية التفسير الاّ بالرجوع إلى أخبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين شاهدوا تنزيله وأدّوا إلينا من السُّنن ما يكون بياناً

لكتاب الله تعالى وبالتالي حصر معرفة آيات الكتاب العزيز وفهمها بالسلف الصالح من الصحابة وما نُقل عنهم.

وقد رفض كثير من علماء الأمة هذا الاتجاه بل عدّه الغزالي حجاباً من الحُجب التي تمنع عن فهم معاني القرآن إذ يقول: ((... أنْ يكون قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنَّه لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي وانّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة))[٤٤].

ومن ثمَّ فإنَّ حصر معرفة وفهم آيات الكتاب العزيز بالسلف الصالح من الصحابة وأقوالهم لاستبعاد أنْ تختفي عليهم معاني الكتاب العزيز أمرٌ غير ميسور لأنّ الصحابة أنفسهم قد اختلفوا في فهم وتفسير آيات الكتاب العزيز وقد رتبوا على اختلافهم في الفهم آثارهُ في الواقع العملي والسلوكي لهم.

وحصر المعرفة بهذا الطريق: ((... وهو الاقتصار على ما نقل من مفسِّري صدر الإسلام من الصحابة والتابعين في معاني الآيات القرآنية يوجب توقف العلم في سيره، وبطلان البحث في أثره كما هو مشهود في ما بأيدينا من كلمات الأوائل والكتب المؤلفة في التفسير في القرون الأولى من الإسلام، ولم ينقل منهم في التفسير الاّ معانٍ ساذجة خالية عن تعمّق البحث وتدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[سورة النحل ٨٩]، من دقائق المعارف في القرآن؟ وأمَّا استبعاد أنْ يختفي عليهم معاني القرآن مع ما هم عليه من الفهم والجدِّ والاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم في معاني كثيرة من الآيات والتناقض الواقع في الكلمات المنقولة عنهم إذ لا يتصور اختلاف ولا تناقض إلاّ مع خفاء الحق واختلاط طريقه بغيره))[٤٥].

(٤٤) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٣٥ -٣٣٦.

(٤٥) الميزان: ٣/ ٧٦.

المصادر

خير ما نبدأ به كتاب الله العزيز (القرآن الكريم).

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢. إحياء علوم الدين، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥ ه)، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٣. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار عليهم السلام، الشيخ محمد باقر المجلسي، تحقيق: العلَّامة الشيخ علي النّمازي الشاهرودي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

٤. البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٥. البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الموسوي الخوئي، ط٣، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٦. تفسير التبيان، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٥٨هـ-١٩٦٥م.

٧. تفسير الصافي، المولى محسن الملقَّب بـ الفيض الكاشاني المتوفَّى ١٠٩١هـ، تقديم وتعليق: الدكتور أسد الله علوي، ط١، دار الجوادين، دمشق، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

٨. جامع الأصول من أحاديث الرسول، أبو السعادات، مبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦هـ)، إشراف وتصحيح: عبد المجيد سليم، ومحمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٤٩م.

٩. جامع البيان عن تأ ويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفَّى: ٣١٠هـ، قدَّم له: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي

جميل العطَّار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٥هـ-١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

١٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم احمد بن عبد الله الأصفهاني (ت: ٤٣٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

١١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٢. سنن الترمذي، سليمان بن الأشعث (ت: ٢٧٥هـ)، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٧م.

١٣. شرح نهج البلاغة، الجامع لخطب وحكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، تأليف عزِّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: الاستاذ محمد أبي الفضل ابراهيم، ط ١، الدار اللبنانيَّة للنشر، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

١٤. الكافي، ثقة الاسلام: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، ط١، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م-١٤٢٨هـ.

١٥. المجاز عند المفسِّرين، الدكتور نجم الفحَّام، ط ٢، مطبعة المتنبي، الديوانيَّة، ٢٠٠٩م.

١٦. مسند أحمد، أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع ونشر: دار الفكر العربي.

١٧. مواهب الرحمن، عبد الأعلى السبزواري، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

١٨. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.